Zahra Qnīnba-. *Usṭūratu miladi madīnati rūma min khilāli fusayfisāʾin liksūsiya (al-Maghrib)* (Rabat: Dār al-Qalam, 2015), 150 p.

زهرة قنينبة -. أسطورة تأسيس روما من خلال فسيفساء ليكسوسية (المغرب)، (الرباط: دار القلم، 2015)، 150 ص.

لم تجد زهرة قنينبة، الأستاذة الباحثة بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط، خيرا من الأسئلة المعلقة حول فسيفساء ليكسوسية تحيل على الميلاد الأسطوري لمدينة روما من أجل مواصلة مشروعها البحثي الرامي إلى اقتفاء آثار محترفات إنتاج الفسيفساء بالمغرب خلال الفترة الرومانية، وتتبع سياقات نشأتها ورصد تطورات اتجاهاتها. إن المؤلفة بهذا المشروع الطموح تسهم في الرفع من منسوب الوعي بإرث زخرفي ومصدر قيم من مصادر فهم التاريخ والثقافة والمعتقدات والحياة المحلية بكافة جوانبها، تكفي العودة إلى السجادات الفسيفسائية التي جرى الكشف عنها بكل من الموقع الأثري وليلي (Volubilis)، وليكسوس (Lixus)، وبناصا (Banasa)، وريغا (Rhira)، وتمودا (Tamuda) وسلا- شالة الحالية (Sala) لملامسة ما يزخر به من إضاءات.

إن اختيار الكاتبة لهذه اللوحة الفسيفسائية، ذات المشهد الإيقونوغرافي الذائع الصيت، لا يرتبط فقط بملامستها للكيفية التي استحضر بها الرومان بدايات مدينتهم قبل أن تتحول إلى قوة عظمى بسطت نفوذها طوال قرون على حوض البحر الأبيض المتوسط بأكمله، بل لإثارتها الجدل الدائر حول المعرفة التاريخية التي لم تستطع أن تنزع عنها تماما عباءة الأسطورة. فلئن كان للتاريخ، في صيغه الحديثة، شروط ومستلزمات لاختلاف مقاصده وآلياته في بناء المعنى وسرد الحوادث، فإنه كثيرا ما استعان بالنص الأسطوري كلما استبدت به الرغبة في تقريب المسافة الفاصلة بين الحقيقة الموضوعية والحقيقة المتخيلة.

استهلت الباحثة مقدمة إصدارها بمضامين أسطورة غدت في الأدبيات القديمة عنوانا لمدينة ليكسوس (موقع أثري قرب العرائش بشمال المغرب)، أسطورة تقرن

اسمها بحدائق الهسبيريد (Hespérides، جنات الغرب) وبالتنين المرعب الساهر على حراسة تفاحها الذهبي، وتجعل من أرضها موضع النزال الذي جمع البطل الإغريقي هرقل (Héraclès) بالعملاقين أطلس (Atlas) وأنطي(Antée). ولم تفوت الكاتبة الفرصة للتأكيد على أن المستكشف والظاهر من المدينة لا يتجاوز ربع مساحتها الإجمالية التي تقارب خمسة وسبعين هكتارا، فيما يظل جزء مهم من معالمها وأسرارها مطمورا تحت الأرض. ومعلوم أن التنقيب الأثري في ليكسوس قد انطلق في العشرينيات من القرن الماضي على يد سيزار لوي دومونتالبان (César Luis de Montalban)، ليتواصل تحت إشراف كل من ميگيل طارادیل (Miguel Tarradell) بين سنة 1948 وسنة 1960 وميشيل بونسيک (Michel Ponsich) من سنة 1960 إلى سنة 1968، وليصبح أكثر كثافة بعد انقطاع دام عقودا مع أعمال بعثات مغربية أو مغربية أوروبية (حفريات ما بعد مؤتمر العرائش حول ليكسوس سنة 1989). وعلى الرغم من الحاجة الأكيدة إلى مزيد من التحريات، فقد مكن ما جرى العثور عليه إلى الآن من جمع مادة غنية حول المدينة وتطورها الحضري، منذ أن وضعت المنشأة الفينيقية نواتها الأولى خلال القرن الثامن قبل الميلاد، مرورا بالمرحلة البونية الممتدة من القرن الخامس إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، فالمرحلة الموريطانية من بداية القرن الثاني قبل الميلاد إلى سنة 40 ميلادية حين أصبحت المدينة مركز جذب قوي وتحديدا زمن حكم الملكين يوبا الثاني (Juba II) وابنه بطليموس (Ptolémée)، ووصولا إلى مرحلة الوجود الروماني الذي طبعها بطرازه المعماري خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد، وأخيرا المرحلة الإسلامية التي تتجسد بالأساس ببقايا مسجد صغير ومنزل بفناء، فضلا عن عدة قطع خزفية تؤرخ بالفترة الممتدة من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر الميلاديين.

وقبل الخوض في مقصود الكتاب، كان لزاما توثيق الفسيفساء الليكسوسية موضوع الدراسة والمعروضة حاليا بالمتحف الأثري في تطوان، وهذا ما توفقت المؤلفة في إنجازه كما هو معهود عنها، حيث استعرضت حيثيات اكتشافها سنة 1948 مثبتة في واحد من أفخم المنازل المكتشفة إلى الآن بالمدينة. كما أوضحت أن التلف الذي مس جزءها العلوي لم يحل دون تأريخها بأواخر القرن الثاني بعد الميلاد ولا من إدراک فرادة الرصيعة التي تتوسطها، رصيعة بألوان حية، دائرية الشكل، تخلد مشهدا يجمع إله الحرب مارس(Mars) بالكاهنة العذراء ريا سيلڤيا (Rhéa Silivia)، في إحالة ضمنية على ميلاد مدينة روما أشهر الأساطير الرومانية على الإطلاق. وتجمل زهرة قنينبة في

عبارة جامعة أسباب هذه الفرادة: "ما يثير استغرابنا هو كون نشأة الموقع محاطة بهالة أسطورية في حين نجد الفسيفساء تمجد الإرث الروماني مع العلم أن عدد الفسيفساء المرتبطة بهذا الموضوع محدود بالقياس مع مواضيع أخرى وأن باقي المواقع المغربية لم تقدم هذا الموضوع بتاتا ."

توزعت مادة الكتاب على ثلاثة فصول، احتوى كل فصل على مجموعة من المباحث؛ كان الفصل الأول تعريفا مستفيضا بالتأسيس الأسطوري لمدينة روما الذي تعزوه الأدبيات القديمة إلى دعم قوى غيبية، خارج إطار عالم البشر، خططت ورسمت مسار الأحداث كما تبتغيها. لقد أفضى لقاء بطلي مشهد الفسيفساء الليكسوسية، إله الحرب مارس والكاهنة العذراء ريا سيلڤيا، إلى ميلاد توأمين، رومولوس (Romulus) وروموس (Remus)، قدر لهما أن ينجوا من موت محقق بعد أن رميا في نهر التيبر(Tibère)، لكن السلة التي وضعا فيها طفت على سطح النهر وتوقفت عند سفوح هضبة الكابيتول (Capitole). أثناء توقفها قامت ذئبة بجر السلة ومن ثم رضاعة الطفلين، بينما قام نقار خشب بإطعامهما، بعد ذلك عثر عليهما راع وتكفل بتربيتهما مع زوجته. وبعد أن كبر الطفلان اختلفا على أحقية أي منهم سيكون اختيار الآلهة ليحكم المدينة الجديدة، ففي معركة لا مفر منها قتل رومولوس أخاه روموس. وبالتالي يكون رومولوس هو الملك الأول لمدينة روما التي يعزى تأسيسها إلى 21 أبريل من عام 753 قبل الميلاد.

لم تكتف الكاتبة باستحضار ما روجت له الأدبيات القديمة من أحداث لا تصمد أمام النقد التاريخي الحديث، فقد حرصت على التذكير أن الأسطرة آلية معتادة في تاريخ الشعوب والأمم والإمبراطوريات، يلتجأ إليها لرأب الصدع ودعم اللحمة واصطناع الأنساب المشتركة. إن إضفاء هالة من القدسية على ولادة روما هو في حقيقة الأمر رفع من سلالة يوليوس قيصر (Jules César) وولده بالتبني الإمبراطور أغسطس (Auguste)، والتي ادعى أفرادها أن لها صلة بالإلهة ڤينوس (Vénus) وبنجلها الأمير الطروادي إيني (Enée) بطل ملحمة الإنيادة والجد الأكبر لرومولوس مؤسس المدينة وملكها الأول. من أنتج أسطورة تأسيس روما؟ إنها من صنع السلطة السياسية، تجيب الكاتبة دون تردد، وإلى جانبها المؤرخون المحترفون السابحون في فلكها.

يأخذنا الفصل الثاني من الكتاب في رحلة من البحث بين المصادر الأثرية عن النموذج أو النماذج التي شكلت منطلق صانع الفسيفساء الليكسوسية. ولعل أهم ما

يسترعي الانتباه في هذه الرحلة هو قلة تشخيص مشهد لقاء مارس بريا سيلڤيا، مقارنة مع باقي المواضيع الكلاسيكية التي تخوض في ولادة الآلهة ومغامراتها ونزاعاتها وتدخلها في مصائر البشر. وعلى عكس المتوقع، كان تأثير المشهد من الناحية الفنية محدودا، إذ لا يتجاوز مجموع القطع الأثرية التي أدرجتها ثلاثا وثلاثين قطعة، تتوزع بين مسكوكات وتوابيت ورسوم جدارية وأواني قربانية ومجموعة من الحلي والأحجار الكريمة، فضلا عن لوحات نادرة من الفسيفساء لا يتعدى عددها الثلاثة، هي اللوحة المكتشفة في ليكسوس، وأخرى بإسبانيا، وأخيرة بإيطاليا، في مرسى أوستيا (Ostia) تحديدا. هذا وقد خلصت الباحثة إلى أن لقاء مارس بريا سيلڤيا أشبه بمجموعة من المشاهد منها بمشهد واحد، مجموعة عكف على إبداعها فنانون وحرفيون مختلفون وعلى فترات زمنية متباعدة، تمتد من القرن الأول قبل الميلاد وتنتهي بالقرن الخامس الميلادي مع فترة أوج تزامن مع تولي الإمبراطور أغسطس لمقاليد الحكم بروما. بيد أن خيطا ناظما يجمعها، وهو تمجيد مدينة روما والاحتفاء بالجذور الأسطورية المزعومة لشعبها.

عادت الباحثة بعد هذه الرحلة الشاقة نسبيا على كثير من غير المشتغلين بعلوم الآثار، في الفصل الثالث والأخير من الكتاب، إلى استعادة سؤالها المركزي حول الفسيفساء الليكسوسية، فلئن كانت تشترك في إطارها العام مع مثيلتيها في كل من إسبانيا وإيطاليا، بحكم أن من أشرف على تشكيلها فنانون وحرفيون طبقوا ما كان متداولا ومتعارفا عليه على ضفتي المتوسط حول لقاء مارس بريا سيلڤيا، فإنها تتميز بخصوصيات يستحيل معها أن تكون صورة طبق الأصل لأي مصدر آخر. إن عملية الاقتباس، حتى وإن وقعت، فإنها قد خضعت لاختيارات محددة جعلتها فريدة من نوعها.

وختمت الباحثة الكتاب بخلاصة عامة وملحق غني بالأشكال واللوحات التي تم تعزيز المتن البحثي بها. وإمعانا في خدمة القارئ الذي يكاد يجهل الشيء الكثير عن الفسيفساء الرومانية بالمغرب وإسهاما في دفعه إلى الاستئناس بهذا الإرث الزخرفي المكمل للعمارة القديمة، ضمنت عملها بهوامش مثقلة بالتعليقات والتوضيحات المطولة والمفيدة، بل وذيلته بملاحق استغرقت ما يناهز واحدا وأربعين صفحة، شملت فهارس دقيقة وكشافات مفصلة: معجم المصطلحات، كشاف الأماكن وكشاف الأعلام. وبموازاة مع ذلك، أتحفتنا بلائحة بيبليوغرافية ثرية، استعرضت فيها مجموع المصادر والمراجع المعتمدة، ثم زادت في إخصاب مؤلفها بأن اقترحت على القارئ وصفا

وتحليلا رصينا للجزء الهندسي من فسيفساء مارس وريا سيلڤيا بليكسوس. إن التمعن في الأدوات التي قاربت بها الباحثة اللوحة، يؤكد على مدى أهمية الدراسة، ويشير إلى أننا أمام عمل أكاديمي ذي قيمة مضافة، ويظهر أن المجهود المبذول في رصد وتوظيف المواد المصدرية والأثرية بأنواعها المختلفة، بلغ أقصى درجات التمكن والإحاطة.

هشام الركيگ
جامعة القاضي عياض بمراكش